Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 39:1 (2004)

# الذوق الأدبي
## مفهومه وتطوره وعلاقته بالنقد وعلم الجمال

شعبان محمد مرسي

**دلالة كلمة الذوق في اللغة العربية:**

من الطبيعي أن نرجع إلى معاجم اللغة لنعرف المعنى الأول لهذه الكلمة، ثم تحمّلها لمعنى ثانٍ أو انتقالها إليه، وبالنظر في تلك القواميس نجد اللفظة مستعملة في مجال الطعام لاختياره ومعرفة جودته أو رداءته، ويتم ذلك بتناول شيء قليل على طرف اللسان، فيختلط هذا القليل بحليمات الذوق الموجودة في اللسان، وتتفاعل، وتنتج المعرفة المباشرة بنوع المأكول، فيستساغ أو يمج أو يلفظ(١).

وانتقلت دلالة الكلمة من المجال الحسّي، وهو تذوّ ق الطعام والشراش، إلى المجال المعنوي، مثل تذوّق الشعر والنثر، أي فهمه وتمييز جيّده من رديئه، وتحديد طبقته الفنّية(٢).

وقـد جاء الفعل ذاق ومضارعه يذوق والأمر منه واسم الفاعل في القرآن الكريم ثلاثا وستين مرة(٣). بعضها بالدلالة الحقيقية، وبعضها بالمعنى المجازي، فممّا ورد بالدلالة الحقيقية قول الله تعالى: ﴿ **فَدَلاَّهُمَا بِـغُرُوْرٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَّكُمَآ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِيْنٌ** ﴾(٤)

---

١ – **لسان العرب**، لابن منظور، مادة: ذوق، ط/ دار المعارف بالقاهرة، **تاج العروس**، لمرتضى الزبيدي، مادة: ذوق، باب القاف فصل الذال، ط/ دار الكتاب العربي، بيروت، **موسوعة المورد**، لمنير البعلبكي، ط/ دار الفكر، بيروت، ج ٩، ص ١٧٦–١٧٧.

٢ – **المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مادة: ذوق.

٣ – **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب المصرية، القاهرة، مادة: ذوق.

٤ – سورة الأعراف، الآية: ٢٢.

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

فالفعل "ذاقا" في هذه الآية الكريمة بمعنى أكلا من ثمر تلك الشجرة المحرمة، ويدل على هذا قوله تعالى في آية أخرى ﴿ **فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى** ﴾(١) ويلاحظ أن الفعل "ذاقا" قد اتسعت دلالته الحسّية، فصار بمعنى الأكل، والأصل أن يستعمل "فيما يقلّ تناوله دون ما يكثر، فإن ما يكثر منه يقال له الأكل"(٢).

ومن الاستعمال المجازي للفظة "ذاق ـ يذوق" في القرآن المجيد ما ورد في سياق العذاب والرحمة، ومنه قوله عز من قائل: ﴿ **إِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيْهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُوْدُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوْدًا غَيْرَهَا لِيَذُوْقُوْا الْعَذَابَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَزِيْزًا حَكِيْمًا** ﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوْا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيْهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُوْنَ** ﴾(٤)، غير أن استخدام اللفظة مع العذاب أكثر من استعمالها مع الرحمة. ومع أن العذاب عظيم مهما كانت مدته فقد وضع في سياق الفعل "ذاق" أو "يذوق" أو اسم الفاعل ذائق، ومادته تدلّ في أصلها على التناول القليل، ولكنها هنا تدل على الكثرة والشدة ومباشرة الأبدان والنفوس بدلالة السياق والقرينة الشرعية. قال الراغب الأصفهاني: "واختير في القرآن لفظ الذوق في العذاب، لأن ذلك وإن كان في التعارف للقليل فهو مستصلح للكثير"(٥)، أي أن الأصل في استعمال اللفظ "الذوق" لدى العرب أن يستخدم في التعبير عن الأخذ القليل بطرف اللسان، ولكن القرآن توسع في معناه، وجعله يعبّر عن الكثرة، واستصلح ذلك بالقرائن والسياق، وكان يمكن للراغب أن يقول: إنه استعمال مجازي أو على طريق الاستعارة، غير أنه عدل عن ذلك.

---

١ – سورة طه، الآية: ١٢١.

٢ – **المفردات في غريب القرآن**، للراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سعيد كيلاني، طبعة كراتشي، ص ١٨٢.

٣ – سورة النساء، الآية: ٥٦.

٤ – سورة الروم، الآية: ٣٦.

٥ – **المفردات في غريب القرآن**، ص ١٨٢.

وتوسّع بعض علماء اللغة في دلالة الذوق، ورأوها لا تختص بحاسة الفم، فقالو: "الذوق مباشرة الحاسة الظاهرة أو الباطنة ولا يختص ذلك بحاسة الفم في لغة القرآن ولا في لغة العرب"(١).

وفي الحديث الشريف نلفي الفعل "ذاق" مستعملا استعمالا مجازيا كما في قوله صلى الله عليه وسلم: "ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا"(٢)، فقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم للإيمان ـ وهو شيء معنوي يدركه القلب، ويستقرّ فيه ـ طعما يذوقه من استوفى الشروط الثلاثة، وهي أن يقنع بربوبية الله وحده، وأن يتخذ الإسلام دينا يدين به دون غيره، وأن يعتقد اعتقادا جازما أن محمد رسول الله وخاتم النبيّين ، وهذا الاستعمال استعارة أخرجت المعقول في صورة المحسوس، فنقشت المعنى في النفس، وثبّتت المقصود في القلب بحلاوة التعبير وجماله.

والاستخدام المجازي للذوق ومشتقاته كثير في لغة العرب، من ذلك قولهم: "ذقتُ الناس وأكلتُهم، ووزنتُهم وكِلْتُهم، فما استطبتُ طعومهم، ولا استرجحتُ حلومهم"(٣). والمعنى خبرت الناس، وعرفتهم معرفة جيّدة، فما وجدت لديهم مكارم الأخلاق، ولا رجاحة العقول. والقائل يقصد قوما مخصوصين. وقد استعمل القائل "ذقت" استعمالا مجازيا بمعنى خبرت على سبيل الاستعارة، ورشحها بقوله "وأكلتهم فما استطبت طعومهم". هذا في النثر وفي الشعر يأتي الاستعمال المجازي كثيراً، ومنه قول الشماخ بن ضرار عن قوسه:

فذاق فـأعطته مـن اللين جـانبا  لها ولها إن يغرق السهم حاجز(٤)

أي غمزها ليعرف جودتها، فأبانت له لينها ودقتها.

---

٦ ـ **تاج العروس**، مادة: ذوق، ولم يذكر اسم القائل، وإنما اكتفى بقوله: "وقال بعض مشايخنا ...." ج ٦، ص ٣٥٣، باب القاف فصل الذال.

١ ـ **الجامع الصحيح**، لمسلم بن الحجاج القشيري، باب الإيمان، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، سنة ١٣٧٥هـ، ص ٥٦.

٢ ـ **أساس البلاغة**، للزمخشري، جار الله، تحقيق: عبد الرحيم محمود، مادة: ذوق.

٣ ـ مصدر السابق، **ديوان الشماخ**، تحقيق الدكتور صلاح الدين الهادي، مكتبة دار المعارف بالقاهرة، ١٩٦٨م، ص ١٩٠، ورواية البيت تختلف قليلا عما جاء في **أساس البلاغة**، للزمخشري، وها هي ذي رواية الديوان:

وذاق فأعطته من اللين جانبا  كفى، ولها أن يغرق السهم حاجز

وعهــد الغـانيـات كعهــد قيــن ونت عنــه الجعـائـل مستـــذاق(١)

**دلالة كلمة الذوق في اللغة الإنجليزية والفرنسية والإسبانية:**

الكلمة التي تقابل الذوق في الإنجليزية هي "Taste"، ولها عدة معانٍ في سياقات مختلفة أي طبقا للجملة التي توضع فيها، فتكون فعلاً بمعنى يذوق كما في العبارة الآتية:

نذوق الطعام We taste the food أي نختبر طعمه لمعرفة خصائصه.

وتأتي اللفظة اسما بمعنى الذوق، وحاسة الذوق، في مثل قولهم: الذوق مهمّ: Taste is important، وكذلك قول علماء النفس وعلماء الطب والفلسفة: .Taste is one of the five bodily senses حاسة الذوق إحدى الحواس الخمس في جسم الإنسان. ويطلق الذوق على طعم الشيء نفسه، فيصير بمعنى المذاق، وأطلق بعد ذلك على ملكة التمييز بين الجيّد والرديء في مجال الفنون والآداب عام ١٩٧١م، وعندئذ انتقلت اللفظة من المفهوم الحسّي إلى المفهوم العقلي. وبعد ذلك حملت الكلمة دلالة أخرى بجانب الدلالات السابقة، فأصبحت تستخدم بمعنى أسلوب Style، فيقال: This is the taste of 18th century. هذا ذوق القرن الثامن عشر، أي أسلوب القرن الثامن عشر. وكان بدء هذا الاستخدام سنة ١٧٣٩م. ومن هذه الكلمة اشتق الإنجليز لفظة ذائق و ذواقة Tastefull and Taster.

ثم تخصصت لفظة ذائق Taster لمن يذوق الطعام والشراب في الغالب كما تعيّنت كلمة ذواقة Tastefull للذين يتذوّقون الفنون والآداب. وصار لها مضاد هو عديم الذوق Tasteless، وهي ترد مع المحسوسات مثلما تجيء مع المعقولات، فيقال: الماء لا طعم له The water has tasteless. ويقال أيضاً: This artist has tasteless in this picture هذا الفنان عديم الذوق في هذه الصورة(٢).

وفي اللغة الفرنسية نجد كلمة Le Gout تقابل كلمة الذوق العربية، وهي تدل على إدراك الطعوم المتنوّعة والقدرة على التفريق بينها، وهذا هو الأصل في الدلالة عند الفرنسيين، فهم يقولون عند أكلهم أو شربهم:

---

٤ – **ديوان جرير**، دار المعارف، بالقاهرة، لم يرد البيت في الديوان الذي حقق د. نعمان محمد أمين، وإنما ورد في **لسان العرب**، مادة ذوق، منسوبا إلى نهشل بن حري.

١ – The Shorter Oxford English Dictionary, Vol. II, P. 2135 - 2136.
A Supplement to the Oxford English Dictionary, Vol. IV, P. 752.

هذا مذاقه حسن: Ca a bon gout والنقيض تماما: Ca a Mauvais Gout هذا مذاقه سيّئ وترد كلمة Gout بمعنى الرغبة، كقولهم: IL a beacoup de gout pour ce genre de travail لديه رغبة عارمة في هذا النوع من العمل(١).

وضد ذلك قولهم: IL a peu de gout pour ce genre de travail ليس لديه رغبة في هذا النوع من العمل. ومن معاني كلمة Gout أسلوب، يظهر هذا الاستعمال في مثل قولهم: IL s'est mis au gout du jour وضع نفسه في أسلوب العصر الحديث. وهي ترجمة حرفية يمكنه تعديلها أدبيا بقولنا: تَبِعَ أسلوب العصر الحاضر أو نهج الأسلوب الحديث وضده قولهم: IL s'est mis dans le gout classique تبع الأسلوب المحافظ(٢).

وبالإضافة إلى حقل المحسوسات صارت الكلمة إلى ميدان الفن والنقد، فأصبح يقال: C'est un critique plein du gout إنه ناقد ذواقة(٣). ومن لفظة Gout اشتق الفعلGouter يتذوّق، بيد أن معناه اتسع، فهو يدل دلالات عديدة على حسب السياق، أنه يعني ما يأتي:

يختبر ـ يحاول ـ يبرهن ـ يقيّم ـ يحب ـ يتمتع ـ يشعر. هذا علاوة على الدلالة الأصلية: يتذوّق. ومن هذا الفعل أخذ الفرنسيّون اسم الفاعل ذائق أو ذائقة أو متذوّق أو متذوّقة. للمؤنثة Gouteuse ـ وللمذكر Gouteur.

وإذا اتجهنا إلى اللغة الإسبانية فإننا نجد كلمة: Gusto تعني الذوق. وهي قريبة من نظيرتها الفرنسية، وزيادة على معنى الذوق تدل اللفظة على الطعم واللذة والرغبة. وتصغر الكلمة، فتصير Gustillo وتكبر هذه المفردة أيضاً فتصبح(٤): Gustazo والتصغير والتكبير يشير إلى نقص في درجة الذوق واللذة أو زيادة فيهما. وقد وظف الإسبان هذه الكلمة للتعبير عن الشعور تجاه الحياة والفن والأدب، وفي هذا الشأن يتسامحون في الاختلافات الذوقية؛ من أجل هذا يقولون في عباراتهم التي

---

٢ – Collins – Robert, French, English – English, French Dictionary, P. 334 - 336.

١ – المرجع السابق، P. 335.

٢ – Health's new French and English Dictionary, P. 308.

٣ – Diccionario Espanol- Arabe, P. 240.

تجري مجرى الأمثال: De gustos no hay nada escrito لا قانون للذوق. وقولهم: Sobre gustos no hay distputa لا مشاحة في الذوق(١).

واشتق الإسبان من الجذر Gust فعلا هو Gustar، وما يسرّ المرء كثيرا اشتقوا له لفظة تفيد المبالغة هي: Gustoso أي لذيذ، أو مبهج غاية البهجة. وتدل لفظة Gusto على الأسلوب كذلك كما سبق أن رأينا في اللغة الإنجليزية والفرنسية إن عبارة: El gusto del dia تعني أسلوب العصر، وهي شائعة في البلاد الناطقة بالإسبانية وعبارة: El gusto del la epoca del barroco تعني أسلوب عصر الباروك، ومن خصائص ذلك العهد العناية المفرطة بالزخرف في كل شيء، فكل من يعنى بالزركشة يتبع طريقة الباروكيين في الإفراط الزخرفي؛ ولذا ينسب إلى تلك الحقبة، سواء أكان ذلك في فن العمارة أو النسيج أو الآداب أو الفنون المختلفة.

**مفهوم الذوق في النقد الأدبي القديم عند العرب:**

ذكر عبد الرحمن بن خلدون أن معنى الذوق عند المعتنين بفنون البيان "حصول ملكة البلاغة للسان"(٢). ولكن المتأمل لحديث هذا العالم الإسلامي يراه منصبّا على المُبدعِ أكثر من الناقد. ولعل تعريف عبد الحكيم السيالكوتي للذوق أقرب للنقد، فقد عرّفه بقوله: "هو كيفية للنفس بها تدرك الخواص والمزايا التي في الكلام البليغ"(٣). أي أن الذوق قدرة فطرية خاصة تقدر بها النفس على معرفة الشعر الحسن والنثر الراقي، وتستطيع بها أيضاً أن تعلل لهذا الحسن بذكر مواضع الجمال وأسبابه.

وتجري كلمة الذوق في كتب النقد العربي القديم، بيد أنهم لم يحددوا دلالتها تحديدا واضحا، وإنما جعلوها مساوية للطبع السليم والقريحة الجيّدة، لهذا كثر دوران مصطلح الطبع في التراث النقدي عند العرب؛ ففي كتاب **الموازنة** مثلا يأتي هذا النص: "العلم ـ أي نوع كان ـ لا يدركه طالبه إلا بالانقطاع إليه والإكباب عليه والجد فيه والحررص على معرفة أسراره وغوامضه، ثم قد يتأتى جنس من العلوم لطالبه ويسهل، ويمتنع عليه جنس آخر ويتعذّر؛ لأن كل امرئ إنما يتيسر له ما في طبعه قبوله وما في طاقته تعلّمه، فينبغي ـ أصلحك الله ـ أن تقف حيث وقف بك، وتقنع بما

---

٤ ـ Cassell's Spanish - English Dictionary, P. 464.

١ ـ **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي، دار النهضة مصر، القاهرة، الطبعة الثالثة، ج٣، ص ١٢٨٩.

٢ ـ **حاشية السيالكوتي على المطوّل**، منشورات الرضي، قم، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ، ص ١٣.

قسم لك، ولا تتعدى إلى ما ليس من شأنك ولا من صناعتك"(١). واضح من هذا النص أن الطبع معناه الذوق الخاص الذي يوجه صاحبه إلى وجهة دون أخرى، فيميل إلى فن دون فن، ويحب شاعرا، ويكره آخر، ويفضّل علما على علم، ويعتنق مذهبا، ويدع مذهبا آخر.

وفي نص للقاضي الجرجاني ترد كلمة الذوق والطبع، وهو يثبت للعوام ذوقا، إلا أنه يعتني بذوق أهل العلم والخبرة بالدقائق، وهو لم يعرّف هذين المصطلحين: الذوق والطبع، يقول: "فأما المختل المعيب والفاسد المضطرب ـ من الشعر والنثر ـ فله وجهان: أحدهما ظاهر يُشْتَرَكُ في معرفته، ويقلّ التفاضل في علمه، وهو ما كان اختلاله وفساده من باب اللحن والخطأ من ناحية الإعراب واللغة، وأظهر من هذا ما عرض له من قبل الوزن والذوق، فإن العامي قد يميّز بذوقه الأعاريض والأضرب، ويفصل بطبعه بين الأجناس والأبحر، ويظهر له الانكسار البيّن والزحاف السائغ. والآخر غامض يوصل إلى بعضه بالدراية ويحتاج في كثير منه إلى دقة الفطنة وصفاء القريحة ولطف الفكر، وبُعد الغوص، وملاك ذلك وتمامه الجامع له والزمام عليه صحة الطبع، وإدمان الرياضة، فإنهما أمران ما اجتمعا في شخص فقصرا في إيصال صاحبهما عن غايته، ورضيا له بدون نهايته"(٢). إن العوام لهم ذوق يدركون به الأخطاء الظاهرة في الكلام، شعره ونثره، ولا يقدرون على ذلك فيما خفي و دق، وإنما يعرفه ذوو الذوق الراقي والقراءة الفاحصة والتأمّل المستمر في أنواع الإبداع الأدبي منظوما ومنثورا، وهم بدرسهم المتأنّي لمحاسن القول ومساوئه قد أضحوا خبراء يصدرون الأحكام النقدية، ولا يلزمهم أحد بالدليل؛ لأنهم مثل الصيارفة الذين يحكمون على النقود المختلفة بالصحة أو الزيف.

ويأتي حسين المرصفي في مطلع العصر الحديث، فيبعث الدراسات الأدبية والنقدية العربية القديمة بعثاً محركا للعقول مع شيء من التجديد بتناول النتاج الأدبي لبعض معاصريه من الشعراء والناثرين كالبارودي. ومن المسائل الأدبية التي عرضها الشيخ حسين مسألة الذوق، وقد حدده بقوله: "فالإدراك الذي يتعلق بتناسب الأشياء ويوجب الاستحسان والاستقباح هو المسمى بالذوق، وهو طبيعي ينمو ويتربّى بالنظر في الأشياء والأعمال من جهة موافقتها للغاية المقصودة منها"(٣). في هذا التحديد

---

١ ـ **الوساطة بين المتنبّي وخصومه**، للجرجاني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، سنة ١٣٨٦هـ، ص ٤١٣.

٢ ـ **الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية**، لحسين المرصفي، ط. المدارس المكية بمصر، ١٨٥٧هـ، ج ٢، ص ٤٧٢.

٣ ـ **الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري**، للآمدي، ص.

لمعنى الذوق تبدو عدة أمور: أولها أن الذوق في أصله طبع فطر الله الإنسان عليه، ولذلك لا يخلو منه أحد من الناس. وثانيها أنه يتطور ويزدهر بإدمان النظر في الصناعات والفنون والبحث عن غاياتها، ومدى الملاءمة بينها وبين المقاصد المطلوبة من إبداعها. وثالثها وظيفة الذوق وهي التفتيش عن انسجام الأعمال وتناسب أجزائها وترابطها، ثم الحكم لها بالجمال والحسن، أو القضاء عليها بالفساد والقبح، وتوجيه الأنظار إلى تركها.

ويتفق المرصفي مع ابن خلدون في العناية بالدرس والتحصيل وحفظ كلام العرب لتنمية الذوق الأدبي، ولكنه يختلف عنه في طبيعة الذوق، فعنده أن الذوق موهبة، أما ابن خلدون فالذوق عنده مكتسب بكثرة الحفظ لشعر العرب ونثرهم، والتأمل في أساليبهم وتنوع أغراضهم(١).

ويرى الدكتور أحمد بدوي أن العرب القدامى قد عرفوا للذوق معنيين "أحدهما الملكة الراسخة في النفس، الناشئة من ممارسة كلام العرب، وثانيهما هذا الاستعداد الفطري الذي يهيّئ صاحبه لإدراك ما في الكلام من جمال، وما لهذا الجمال من أسرار"(٢).

**مفهوم الذوق في النقد الأدبي الحديث عند العرب:**

حاول الأديب مصطفى صادق الرافعي أن يحدّد مفهوم الذوق أو يقرّبه إلى الأذهان المعاصرة بقوله: "وأنت تعلم أن الذوق الأدبي في شيْء إنما هو عن فهمه، وأن الحكم على شيء إنما هو أثر الذوق فيه، وأن النقد إنما هو الذوق والفهم جميعا"(٣). لقد جعل الرافعي الذوق يصدر عن فقه الأعمال الأدبية والفنية الأخرى، ولا شك أنّ هذا عمل العقل، فهل الذوق نتاج الفكر العقلي وحده؟ لقد ردّ الكاتب الحكم إلى تأثير الذوق، ورأى أن النقد يتألف من ركنين هما الذوق والفهم، ويبدو أنه هنا يميل إلى تفسير الذوق بأنه حالة نفسية نابعة من تأمل الأعمال والأشياء، فإذا فهم الإنسان ما بين يديه من الأعمال الإبداعية تفاعل معها، وقدر على تمييز جوانب الكمال والجمال فيها، وتوضيح مواطن الضعف والخلل في بنيانها، وعلى هذا يستطيع أن يصدر حكما نقديا بالقبول والاستحسان أو الرفض والاشمئزاز.

---

١ – **النقد الإحيائي وتجديد الشعر في ضوء التراث**، للدكتور عبد الحكيم راضي، دار الشايب للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة ١٩٩٣م، ص ١٤٤–١٤٥.

٢ – **أسس النقد الأدبي عند العرب**، للدكتور أحمد بدوي، نهضة مصر، القاهرة، ص ٨٨.

٣ – **تحت راية القرآن**، لمصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي بيروت، الطبعة السابعة، سنة ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، ص ١٣.

ويعرف أحمد حسن الزيات الذوق بأنه "حاسة معنوية يصدر عنها انبساط النفس أو انقباضها لدى النظر في أثر من آثار العاطفة أو الفكر"(١). هذا التعريف بنصه يأتي في **المعجم الوسيط**(٢)، ويظهر أنه واضعي هذا القاموس قد نقلوه عن الزيات، والجديد في هذا التعريف أنه جعل الذوق حاسة ثم وصفها بأنها معنوية أي نفسية، والمعلوم أن الحواس خمس فقط، وهي السمع والبصر والشم واللمس والذوق، ولكل منها آلة: فالأذن للأولى والعين للثانية والأنف للثالثة والجلد للرابعة واللسان للخامسة؛ ولهذا يأتي السؤال عن الحاسة المعنوية، ما آلتها؟ هل العقل آلتها أو العاطفة؟ يبرز من خلال التعريف أن الزيات يراها مزيجا من الاثنين؛ فعند تدبُّر المتدبر في أثرٍ من آثار العاطفة تتحرك عواطفه سلبا أو إيجابا، وعندئذ تدفعه حاسة الذوق المعنوية إلى الفرح والانشراح أو الضيق والحزن، وحينما ينظر المتلقي في نتاج فكري من نتاج العقول يتفاعل معه عقله، فيصحح الصحيح ويقبله، ويُخطّئ الخطأ ويرفضه.

ويسند الأستاذ أحمد أمين مهمة تقدير القطع الفنية إلى ملَكة الذوق، ويرى أن "هذا الذوق ليس ملَكة بسيطة، بل هي مركّبة من أشياء كثيرة، يرجع بعضها إلى قوة العقل وبعضها إلى قوة الشعور"(٣). إن من البيّن في هذا القول أن الذوق ملكة أي موهبة، غير أنها شديدة التعقيد، لا يمكن تحليلها تحليلا مفصلا، وإنما هي تمتّ إلى الذهن من ناحية، وتتصل بالعاطفة من ناحية أخرى، وعلى قدر ثقافة العقل وما أحاط به من العلم يكون تمييز الذوق من الناحية الفكرية، وعلى حسب رهافة الأحاسيس والعواطفه تكون دقة الذوق في الإحاطة بمواضع الحسن الخفية.

كذلك يرى الدكتور طه حسين الذوق مركبا من العقل والشعور، فهو ليس عقلا خالصا ولا شعوراً خالصاً، وإنما هو مزاج منهما معا(٤).

**مفهوم الذوق في النقد الأدبي الأوربي:**

ظهرت كلمة الذوق بصفتها مصطلحا نقديا عند الأوربيين في نهاية القرن السابع عشر(١). ويعدّ الكاتب الفرنسي لاَ بْرُوْيِيرْ La Bruyere أوّل من استعملها، وذلك في كتابه **الشخصيات**

---

٤ ـ **دفاع عن البلاغة**، لأحمد حسن الزيات، مطبعة الرسالة بالقاهرة، سنة ١٩٤٥م، ص ٤١.

٥ ـ **المعجم الوسيط**، ج ١، ص ٣١٨، مادة: ذوق.

١ ـ **النقد الأدبي**، لأحمد أمين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، سنة ١٣٨٦هـ، ص ١.

٢ ـ **أحاديث**، للدكتور طه حسين، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة العاشرة، سنة ١٩٨٢م، ص ٤٧.

Les Caracteres حيث قال: IL ya donc un bon et un mauvais gout يوجد ذوق حسن و ذوق رديء(٢). وقد صدر هذا الكتاب في عام ١٦٨٨م.

وجاء من بعده الكاتب الإنجليزي جُوزِيفْ أَدِيسُونْ (١٦٧٢- ١٧١٩)(٣) فتناول موضوع الذوق في مقالاته: أوراق مشاهد عن الذوق سنة ١٧١٢م Spectator papers on taste وقد عرّف الذوق بقوله: "إنه ملكة روحية تدرك جمال كاتب إدراكا مصعوبا بالبهجة فتنشرح، وتفطن إلى نقصه فتنقبض"(٤).

واستقر المصطلح من بعد أديسون خلال القرن الثامن عشر، واستمر إلى يومنا هذا، وإن كان النقاد يعيدون النظر كثيرا في تعريفات الذوق، من أجل هذا تبدو الاختلافات أحياناً بين هذه التعريفات، وقد حاول صمويل تايلور كوليريدج (١٧٧٢ ـ ١٨٣٤)(٥) أن يحدد معنى مصطلح الذوق بطريقته الخاصة فقال: "إنه الملكة الوسيطة التي تربط بين القوى الإيجابيه والسلبية في طبيعتنا، وتصل العقل بالشعور، ووظيفتها المحددة أن تعلي صور هذا الأخير بينما هي تحقق أفكار ذلك السابق"(٦). والملاحظ أن التعريف عميق وهو يعتمد على التأمل في أحوال النفس الإنسانية خاصة عند النظر في الأعمال الفنية؛ فإننا عندما نقرأ قصة مثلا نكون في موقع المتلقي السلبي، فتؤثر فينا أحداث القصة، فننفعل معها؛ نضحك إن كانت مضحكة، ونبكي إن كانت مبكية، ثم يأتي رد فعل إيجابي من داخلنا فنعترض على بعض الأمور التي لا تروقنا عاطفيا أو أخلاقيا، وتحمل على التصرف المضاد، وبينما الصراع يدور بين القطبين: الإيجابي والسلبي في أنفسنا من جهة الشعور نجد العقل يتدبّر الأفكار المبثوثة في القصة فيشك في بعضها، ويتيقن من بعضها الآخر، ويحقق فائدتها في الحياة. ما الذي يؤلف كل هذا داخلنا؟ إنه الذوق، تلك الملكة العجيبة التي تجعلنا نأخذ ونترك، ونرضى ونسخط أثناء قراءتنا للكتب، أو خلال مشاهدتنا للّوحات والمسرحيات، أو عند سماعنا للموسيقا.

---

٣ – The Penguin Dictionary of Literary Terms and Literary Theory, P. 957.

٤ – Les Caracteres, P. 31.

١ – English Language and Literature, P. 91 - 93.

٢ – The Penguin Dictionary of Literary Terms, P. 957.

٣ – Biographia Literaria, P. 1 - 3.

٤ – The Penguin Dictionary of Literary Terms, P. 957.

ومن التحديدات السهلة لمعنى مصطلح الذوق التحديد الآتي: "الذوق مصطلح نقدي يطلق على قاعدة القبول أو الرفض الذاتي لأي عمل فنّي يحدث المتعة أو يثير الكآبة في القارئ أو المستمع أو المشاهد"(١) هذه القاعدة الذاتية مشتركة عند الناس جميعاً، قراء كانوا أو نقادا، وهي في غنى عن التعليل لما تقبله أو ترفضه.

**مفهوم الذوق في علم الجمال:**

مازال تحديد مفهوم الذوق في علم الجمال عسيراً؛ لاختلاف علماء الجمال في دلالة الجميل والقبيح، وتباين طرائقهم في الإحاطة به، وتعدد مقاييسهم التي يقيّمون بها جمال الجميل في الطبيعة والفنون ومهما يكن من أمر فإن واضعي المعاجم الفلسفية قد حالوا تحديد معنى الذوق في علم الجمال تحديدا تقريبيا بقولهم: إنه "ملكة الحكم على الأعمال الفنية عن طريق الإحساس والتجربة الشخصية دون تقيد بقواعد معينة، وكثيرا ما تتدخل في هذا الحكم ميول الفنّان وهواياته"(٢) وقد تضمّن هذا التعريف طبيعة الذوق، وجعلها موهبة فطرية، كما اشتمل على بيان الموقع الذي تعمل فيه هذه الموهبة وهو مجال الفن، ووضح أن عملها لا يسير طبقا لمقاييس محددة، وإنما هو قائم على أساس الشعور الذاتي، وبناء على هذا الإحساس يصدر قضاؤها على الإبداع الفنّي، فتقبل ما يلذها، وتنبذ ماعدا ذلك. ولا شك أن ميول الإنسان ترتبط من حيث يشعر أو لا يشعر بنوع التربية التي تلقاها منذ طفولته والبيئة التي نشأ فيها والثقافة التي حصل عليها.

وقريب من هذا التعريف ما جاء في بعض دوائر المعارف: "الذوق قدرة الإنسان على تمييز الجميل من القبيح، وفهمه وتقييمه، في الطبيعة وفي الأعمال الفنية"(٣). إن هذا التحديد لمفهوم الذوق وسع المجال الذي يمارس فيه، وجعله يشمل الطبيعة التي أبدعتها يد الله كما يحتوي على الأعمال الفنية التي أنشأتها يد الإنسان، وكذلك يركز هذا التعريف على فهم الجميل، والفهم الصحيح لا يتسنّى إلا بالتأمل.

---

٥ – The Dictionary of Literary Terms, Syed Shahid Hussain, P. 355.

١ – **المعجم الفلسفي**، مجمع اللغة العربية، بالقاهرة، ص ٨٩.

٢ – Great Soviet Encyclopedia, Vol. 5, P. 386 (Taste – "Aesthetic")

وفي تعريف آخر للذوق في علم الجمال نجد هذا النص: "الذوق اسم لملكة الاستحسان والتقييم؛ إنها شيء يحرك القلب، ومع أنها ذاتية من الناحية النفسية فهي تتطلب مستويات موضوعية (إجماع) للتثبت، تماما مثل تذوق السكر، فإنه خاص، ورغم ذلك فإن حلاوته متفق عليها عاليما"(١).

يتفق هذا التعريف مع التعريفات الأخرى في جعله الذوق قدرة إنسانية يمكنها أن تتعرف الحسن والقبح. وأن تفرّق بينهما، وأن تبيّن درجة الجمال في الأشياء الجميلة، إلا أنه يزيد عن تلك التعريفات بالتنبيه على المستوى الموضوعي للجمال، وهو أن يتضمّن الجميل عناصر خاصة من الحسن تحمل من يراها على الإقرار بجمال هذا الجميل، وإن كان الناس يختلفون فيما بينهم حول درجة هذا الجمال. ولا ريب أن ذلك الاتفاق على جمال الشيء الجميل هو الذي يطلق عليه الإجماع، وهو أمر موضوعي، ويستحيل على الذوق السليم أن يخالف هذا الإجماع، كما لا يماري أحد في أن السكر حلو، ولو أن واحدا جادل في ذلك بعد عديم الذوق أو مريضا، مثلما قال أبو الطيب المتبني:

ومن يك ذا فم مرّ مريض  يجد مرا به الماء الزلالا(٢)

**أقسام الذوق:**

درج نقاد الأدب على تقسيم الذوق إلى قسمين: الذوق الخاص والذوق العام(٣). فأما الخاص فهو ذوق الشخص المفرد، وهو يختلف من فرد إلى آخر، ومردّ هذا الاختلاف إلى الميول النفسية وتنوع التربية. والأمثلة على هذا الذوق الفردي كثيرة، فالمرء الذي تنزع نفسه إلى الانطواء والعزلة والجدّ يحب قراءة الأدب الجادّ الذي يتعمق في الحياة، ويتدبّر في أحداث الوجود، ويتأمل في المصير الإنساني، وذلك النوع من الأدب يغلب عليه طابع الهدوء، وتشيع فيه عاطفة حزينة، لأن كتّاب هذا النوع من الأدب قلّما يرضون عن واقع عصرهم. والإنسان الاجتماعي اللاَّهِي يعجبه الأدب المرح الذي يتناول الحياة من أيسر جوانبها، وتنتشر بين الفكاهة، من أجل هذا لا يصبر على قراءة الأدب الذي يهواه المائلون للتأمل في جوانب الكون وعجائب المقدور.

وأما الذوق العام فهو الذوق المشترك بين أبناء الجيل الواحد؛ لوقوعهم تحت تأثير يشملهم جميعا، فالثقافة التي يتلقاها كل جيل تختلف من عصر إلى عصر، مهما كانت درجة الاختلاف، ويظهر

---

٣ – The new Encyclopedia of Islam, Vol. II, P. 221.

١ – **ديوان المتنبّي**، تحقيق: الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي وسعيد جودة السحار، والدكتور عبد العزيز شرف، مكتبة مصر، القاهرة، ص ٢٩١.

٢ – **حافظ وشوقي**، للدكتور طه حسين، مكتبة الخانجي، القاهرة، سنة ١٩٣٣م، ص ٣٧–٣٩.

هذا في التباين بين الآباء والأبناء من ناحية الذوق؛ لاختلاف المعارف والفنون والعلوم والآداب، فما كان يعجب الوالدين أصبح لا يعجب الأولاد، حتى في المأكل والملبس، فما بالك بالفنون والآداب والعلوم؟

والناظر في تاريخ الأدب العربي يدرك هذه الظاهرة، فالعرب في صدر الإسلام وعصر بني أمية كانت تروقهم الأشعار التي تنظم على نهج الشعر العربي الموروث منذ الجاهلية، أو بعبارة أخرى كان ذوق ذلك الجيل من العرب يميل إلى عمود الشعر العربي الذي سار عليه الشعراء السابقون(١). فخير الشعر ما كان على هذا النسق. ثم تطورت الحال، وتغيّر الذوق العام إلى حد كبير في العصر العباسي، فظهر مذهب البديع على يد مسلم بن الوليد، ونماه أبو تمام ومن لفّ لفه. وفي النثر كان العرب يحبون الإيجاز، فيؤدون المعنى بأقصر الجمل وأسهلها كما يبدو من النصوص النثرية في الجاهلية وصدور الإسلام ثم أتى من بعد ذلك عبد الحميد بن يحيى الكاتب فطوّل الرسائل، ونوّع الجمل، وتفنّن فيها. وزاد التفنّن في العصر العباسي وما تلاه من العصور حتى كانت الكتابة صناعة غلب عليها التكلّف أو التصنّع(٢).

وقد كان القدماء يدركون تغيّر الذوق من جيل إلى جيل أو من حقبة إلى أخرى، ومن أدق ما وصل إلينا من كلامهم قول ابن شهيد، الشاعر الناثر الأندلسي؛ إذ يرى أن الزمان هو الذي غيّر رسوم فنّ الكتابة من السهولة الفطرية إلى طريقة عبد الحميد وابن المقفع وسهل ابن هارون وغيرهم ممن سلك، فهم كانوا ذوي عقول راجحة، وملكات قوية، وطبع مساعد، فأعانهم كل أولئك على دقة الصنعة واتساعها. ودار الزمان دورة أخرى فانتقلت طريقة الكتابة إلى مسار آخر، وكان العامل على ذلك إبراهيم بن العباس وابن الزيات ونظراؤهما، وطريقتهم تتسم بالرقة. ثم دار الزمان دورة أخرى فانبثقت طريقة بديع الزمان وشمس المعالي وتبعهما خلق كثير، وكانت طريقتهم تعتمد على اللطافة وتكلّف الرقة والظرف. هذه ثلاث طرائق في النثر العربي كما يعتقد ابن شهيد، كل واحدة منها لها خصائص محددة، علاوة على الطريقة الأولى التي درج عليها العرب في الجاهلية وصدر الإسلام. هذه

---

٣ – عمود الشعر هو: "شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف، والمقاربة في التشبيه، والتحام أجزاء النظم والتئامها على تخيّر من لذيذ الوزن، ومناسبة المستعار منه للمستعار له، ومشاكلة اللفظ للمعنى، وشدّة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما"، **شرح الحماسة**، للمرزوقي، تحقيق: أحمد أمين وعبد السلام هارون، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة، سنة ١٩٣٩م، ج ١، ص ٩.

١ – **الفنّ ومذاهبه في النثر العربي**، للدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة العاشرة، سنة ١٩٨٣م، ص .

المناهج الكتابية إلى عهد كاتب قرطبة وشاعرها، فأما بعده فقد ظهرت طرق أخرى حتى يومنا هذا. ويرصد ابن شهيد تطور الشعراء وتغيّر الشعر كذلك، فقد كانوا يتبعون عادة مطّردة في نظمه إلى أن ظهرت طريقة المحدثين التي رَادَهَا صريع الغواني وتلاه أبو تمام وأبو نواس وغيرهم، وإن كان هذا الناقد يظنّ أن مسلم بن الوليد كان أفضل لأنه لم يسرف إسراف أبي تمام في بديعه، وخاصة الجناس(١).

ومثلما يختلف الذوق باختلاف الزمان فإنه يتباين بتباين الأمكنة والأمم، فما يرضي الذوق العربي ربما لا يرضي الذوق الإنجليزي، وما تميل إليه طباع الإنجليز قد تشمئز منه نفوس الفرنسيين، والثورات الأدبية تقوم على أساس اختلاف الذوق في تاريخ الأمم، وأيضاً تبدل القواعد النقدية مرجعه أصلا إلى التغيّر الذي يصيب الذوق.

لقد كانت قواعد أرسطو مسيطرة على الإبداع الأدبي في أوربا، وكان النقاد يعتمدون عليها منذ القدم حتى نهاية العصر الكلاسيكي، وعندما جاء نقاد عظام، على رأسهم جون درايدن (١٦٣١-١٧٠٠م)(٢) هزوا تلك القواعد، وأعلنوا آراءهم فيها، ومركز تلك الآراء الجديدة أن نقْد أرسطو لم يعد مناسبا لعصرهم، وأن أدب اليونان مؤتلف مع ذوق اليونانيين، وهو مختلف عن الذوق الإنجليزي، وعلى ذلك انصبت عناية النقاد على الإبداع الأدبي الجديد بعدما كانت مركزة في درس الأدب اليوناني القديم(٣).

وإذا كان كثير من الدراسين والنقاد في الغرب والشرق يرون أن الذوق يتغيّر لعوامل متعددة فهناك من يرى أن الذوق ثابت، لاسيما ما يتصل بالشعر، ومن هؤلاء الذين يعتقدون أن الذوق لا يتحوّل الأمير شكيب أرسلان، فهو لا يرى أن هناك مدارس في الشعر أو مذاهب تقوم على اختلاف الذوق أو تغيّره؛ لأن "المدرسة تكون في العلم وتكون في الصناعة وتكون في الزراعة وتكون في كل شيء إلا في الشعر، فإن مدرسته هي القلب، وإن طريقته هي النفس، وإن النفس البشرية لم تتغيّر، ولن تتغير، فهي هي في أذواقها ومشاربها ومواردها في الحياة ومصادرها....، هذا من جهة الشعر على

---

٢ – **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، لابن بسّام الشنتريني، تحقيق: طه حسين وزملاءه، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة، سنة ١٣٧١هـ/ ١٩٥١م، ق ١، ج ١، ص ٢٠٢-٢٠٣.

١ – Dramatic Poesy and other Essays, Dryden, P. VII – IX.

٢ – Principle & History of Literary Criticism, P. 255.

العموم... (١)، هكذا يرى شكيب أرسلان. إن هذا الرأي يثير الدهشة؛ لأن المشاهد في الواقع أن كل شيء يتغير، كليا أو جزئيا، وما دام التحول هو سنّة الحياة؛ فإن النفس تخضع لهذا القانون، فتطور رؤيتها للحياة، وتصير تصرفاتها بما يناسب الزمن الذي تحيا فيه، والأدب الحي الذي يعبّر عن هذه التطورات اليومية في حياة البشر إنما يعبّر عن نفوس متطورة، ويصور أذواقا متغيّرة.

وكما أنكر شكيب أرسلان تغيّر الذوق نفى توفيق الحكيم وجود ذوق عام؛ لأن الذوق في رأيه يصدر عن المدارك، و "هي تختلف بين طبيعة وطبيعة، وبين ثقافة وثقافة"(٢)، والعوام يتّحدُوّن في الشعور مع الخواص؛ ولهذا يكون هناك شعور عام ورأي عام، غير أنهم يختلفون في الذوق، وليس بإمكانهم الحكم على الأعمال الفنية، ولا في مقدورهم التمييز بين الجيّد وغيره في الفنون والآداب، وإنما توكل مهمة التفرقة بين فنان وآخر، وبين كاتب وآخر، إلى ناس متخصصين لهم ملكات سامية، ولديهم عُدّة وافية، وأولئك هم الذين يحافظون على القيم الحقيقية ويرعون المقاييس الجمالية، وما سوى ذوق هؤلاء لا يعتبر؛ لأنه ذوق عامي قاصر عن إدراك الجمال، وهو لا يستطيع فرز الأشياء؛ لذا "يضع الزجاج في مستوى الماس، والنفيس إلى جانب الرخيص"(٣). لقد أنكر الحكيم الذوق العام، وأثبت ذوقا عاميا لم يقم له وزنا، لأنه غير مؤهل للحكم والتمييز.

ويتفق أحمد الشايب مع الذين يقسِّمون الذوق إلى عام وخاص، ويزيد فيضيف قسما ثالثا هو الذوق الأعمّ، وهو الذي يوجد بين البشر جميعا، فيحملهم على الإعجاب بالآثار الفنية سواء كانت من بلادهم أو بلاد غيرهم(٤)، فتجد العربي يحب أدب شكسبير، وتشاهد الأوربي عاكفا على **ألف ليلة وليلة** ، ومعجبا بشعر فريد الدين العطار أو شعر جلال الدين الرومي أو أبي العلاء المعري.

**الذوق والتربية:**

كان القدماء من العرب يرون أن تنمية الذوق وترقيته تحتاج إلى رعاية خاصة؛ ولذلك كانوا يعنون بتعليم الأولاد أروع الأشعار وأجمل النثر، وقد كثرت كتب المختارات الشعرية والنثرية في الأدب العربي، من تلك الكتب كتاب **المعلقات السبع والمفضليات والأصمعيات والحماسات**، وأكثرها

---

٣ – **شوقي أو صداقة أربعين سنة**، للأمير شكيب أرسلان، مطبعة عيسى البابي بالقاهرة، الطبعة العاشرة، سنة ١٩٨٣م، ص ٢٣٦.

٤ – **فن الأدب**، لتوفيق الحكيم، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، ص ١٨٥.

١ – المرجع السابق، ص ١٨٦.

٢ – **أصول النقد الأدبي**، لأحمد الشايب، نهضة مصر، القاهرة، الطبعة التاسعة، سنة ١٩٨٥م، ص ١٢٥– ١٢٦.

شيوعا **حماسة** أبي تمام، وأبيات المعاني والأخلاق وجرى العرف على اختيار أجود القصائد من كل عصر حتى عصرنا هذا. ومثلما عنوا بالانتقاء لتربية الذوق اهتموا بشرح تلك الأشعار المنتقاة، وبيان ما فيها من أوجه الجمال الفنّي والقيم الإنسانية النبيلة، ويظهر مدى اهتمامهم بذلك من تصفّح شروح تلك المختارات؛ لقد وصلت شروحُ **حماسةِ** أبي تمام إلى ثلاثين شرحا، بعضها مطبوع وبعضها مازال مخطوطا.

وأما النثر الجميل فقد جمع القدماء أفضله، ومنه خطب النبي صلى الله عليه وسلم وخطب صحابته ومن تلاهم، وبعض الخطب ذاع صيته في عهد بني أميّة كخطبة زياد وخطبة الحجاج بن يوسف. وكذلك عنوا بتدوين الرسائل القيّمة، ولا سيما الرسائل السلطانية التي كان ينمقها كتّاب عظام من أمثال عبد الحميد بن يحيى كاتب الأمويين، وابن المقفع وسهل بن هارون وغيرهما من كتّاب العباسيين. ومن المؤلفات القيمة التي رصدت تاريخ الكتابة **صبح الأعشى في صناعة الإنشا** للقلقشندي، وهو كتاب جامع للفنون النثرية العربية، وفيه نصوص نادرة وقيّمة، تفيد في تربية الذوق وتحسين الأساليب الكتابية.

وكان النظام التعليمي في الحضارة الإسلامية يعتمد على الحفظ والفهم في مجال الدراسات العربية والإسلامية، ويرتكز على التجربة المحسوسة في ميدان الدراسات العلمية والتقنية أو التطبيقية. ومما لا ريب فيه أن ذلك المحفوظ من عيون الشعر والنثر كان يساعد على وجود الإبداع الأدبي، فإن اللسان ينطلق في التعبير عن كل ما يعنّ من جديد في مسالك الحياة، إما تعبيرا منظوما، وهو الشعر، وإما تعبيرا مرسلا أو مسجوعا، وهو النثر، وهذا ما يفسّر كثرة الشعراء في تاريخ العرب منذ الجاهلية حتى الآن، ويوضّح وفرة الناثرين المتميّزين في حضارتهم أيضاً وإن المحفوظ في العقل الإنساني يشبه المحفوظ في الحاسب الآلي، مع الفارق الكبير، وهو أن العقل الإنساني ينمّي هذا المخزون ويشكّله بطرق متنوعة، ومن المستحيل أن نجد عقلا فارغا ينتج شيئا، سواء كان عقلا إنسانيا أو عقلا آليا.

إن التدبر في النصوص وحفظها يساعد ملكة التذوق والاستنباط، يقول عبد المنعم شلبي: "في التدريب على التذوق يكون الاهتمام موجها إلى التأمل"(١). هذا صحيح في جميع الفنون، وكلما كان النص في ذهن المتلقي كان التدبر أعمق، فإن العقل يعمل حتى في أوقات النوم، والشعور يتبدل ويتطور

---

١ – **تذوّق الجمال في الأدب**، لعبد المنعم شلبي، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ص ٢٣.

ويرهف، وساعتئذ تسمُو الخبرة، وتزدهر التجربة؛ إذ إن هذه الإبداعات تجارب قوم آخرين، عندما يكتسبها المرء تضاف إلى رصيده من التجارب والخبرات، فتعمق روية الحياة.

وحينما ننظر في الآداب الأجنبية وخاصة الأوربية نراهم يُعْنَوْنَ بالاختيارات، فينتقون من الشعر أحسنه ومن النثر ألذّه، وهم يدرّسونه لتلاميذهم، ويدرّبونهم على تفسيره ونقده، ويشجعونهم على حفظه والنسج على منواله، ويرسمون لهم المناهج المفيدة، كل ذلك في كتب على شاكلة أسئلة: كيف ندرس الشعر؟ كيف نقرأ القصة؟ كيف نتذوّق المقالة؟ كيف نشاهد المسرحية؟ وأخيراً كيف نكتب كل هذا؟ أي أنهم يأخذون بأيدي الناشئة لكي يكونوا مبدعين، كل واحد فيما يهوى، ويميل إليه طبعه. وكذلك وضعوا مؤلفات خاصة عن الذوق الأدبي مثل كتاب آرنولد بنيت **الذوق الأدبي، كيف يتكون**، وفيه يقول: "كان العنصر الأولي الجوهري للذوق الأدبي، هو الاهتمام الحار بالأدب"(١). إذا لم يكن لدى الإنسان عناية وحفاوة بالأدب فلن يتأتى له وجود الذوق الأدبي؛ لأن النفور من الشيء لا يساعد على التمتع به.

لا مناص من قراءة النصوص وتدبّر معانيها وتأمّل تصاويرها وحفظ كثير منها لمن شاء أن يكون له ذوق رفيع. أما من اقتصر على معرفة نظريات الأدب وأقوال النقاد المتضاربة دون أن يواجه الإبداع الأدبي مواجهة حميمة فلن يتكوّن له ذوق دقيق. إن أهل التصوّف يقولون: "من ذاق عرف"، وهي عبارة حكيمة تنم عن خبرة عميقة.

**خلاصة القول:**

نخلص مما سبق إلى أن الذوق يطلق على حاسة اللسان أو عمل اللسان في الأطعمة والأشربة، ثم انتقل معناه إلى المعنويات أو المعقولات التي يدركها العقل والقلب، وارتبط هذا بفن القول، وقد كان العرب يرونه طبعا يُطبع عليه الإنسان، غير أنه ينمو بدرس النصوص، وشذّ عن ذلك ابن خلدون الذي رآه مكتسبا يتولّد من الإدمان والولع بقراءة أحسن القصائد وأجمل النثر. وأما الأدباء والنقاد الغربيون فيعتقدون أنه يتكوّن بمخالطة الأدب والعناية به، وهم يقتربون من اتجاه ابن خلدون.

وعبر تاريخ الأدب العربي انصبت عناية المعلمين والنقاد والدراسين على النصوص، قراءة وشرحا وفهما، حتى نشأ نوابغ في الشعر والنثر. ومثل ذلك حدث عن الأوربيين فاهتموا بالاختيارات الشعرية والنثرية، وعنوا بالتعليق عليها، حتى وضعوا علما أسموه "علم النص" لدرس الإبداع وتذوقه.

---

٢ – **الذوق الأدبي**، لأرنولد بنيت، ترجمة الدكتور علي محمد الجندي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٧م، ص ١٩.

ونحن الآن في حاجة إلى تربية أذواق الناشئة، ولن يكون ذلك ممكنا حتى نختار لهم كما اختار آباؤنا، وأن نقرب تلك المختارات ليتذوقوها، وأن ندربهم على القراءة والاختيار بأنفسهم كذلك. هذا ضروري في عصرنا؛ لن تناول النصوص قد قل، وكثرت النظريات النقدية، وطغى على الجيل الجديد من وسائل الاتصال الحديثة ما أبعدهم عن القراءة خطوات واسعة، فهل نستطيع أن ننجح في إعادة الشباب إلى حقل القراءة، وحب الكتاب الأدبي؟ آمل ذلك، وإن كانت الأزمة الاقتصادية ضاغطة من ناحية أخرى.

* * *